الفصل التاسع

الدائرة الحماسية

تمهيد

شجع النجاح الباهر الذى أحرزته الإلياذة والأوديسا فيما بين القرنين الثامن والسادس قبل المسيح كبار شعراء تلك العصور فهبوا يحاولون محاكاة هوميروس ولكنهم رأوا أن درتيه قد اقتصرتا على حادثتين اثنتين من حوادث التاريخ الأسطورى وهما حرب تروادة وعودة أوديسوس ، بل إن الإلياذة لم تعرض إلا لجزء ضئيل من حرب تروادة فأرادوا إنشاء قصائد مختلفة تشبه قصيدتى هوميروس فى المنهج ، ولكنها تعالج تصوير جميع الحوادث والوقائع منذ اجتماع السماء مع الأرض إلى عودة أوديسوس إلى إيثاكيه ،أى أنها تجمل كل الأساطير المتعلقة بالآلهة وما امتزج بها من الوقائع البشرية كما يقول بُرُكْلوس . ولشمول هذه القصائد تاريخ الأساطير كله دعوها بالدائرة أى المجموعة الكاملة المحيطة بكل شىء ، غير أن هؤلاء الشعراء لم يمنحوا من العبقرية والمقدرة على الإتقان مامنح هوميروس ، فكان خير مافى قصائدهم المعلومات التى تستقى منها ، لاقيمتها الشعرية ولا جمالها الفنى ، ولا إبداعها فى التصوير ، ولا خيالها الخصب ، ولا أسلوبها الرصين ، إلى غير ذلك من خصائص الدرتين الهوميروسيتين .

ومهما يكن من شىء فإن تلك القصائد الجامعة قد فقد أكثرها ولم يبق منها إلا عناوين بعضها وشذرات متفرقة من البعض الآخر . ولقد حدثنا فُتْيوس أحد بطارقة القسطنطينية فى القرن التاسع فى مؤلفه الذى عنوانه « المكتبة » «Bibliothèque» ـ وهو دراسة واسعة فى

الأدب الهيليني خصص منه قسماً لتحليل « خرستوماثيا[1] » تأليف پركلوس ـ أن هذا الأخير قد رأى تلك القصائد كاملة واقتطع منها ملخصه المذكور وقد ارتاب النقاد المحدثون فى ذلك الزعم واستندوا فى ريبهم هذا إلى أنهم عثروا على نسخ أخرى فى أحد أديرة أورشليم وفى مكتبة الڤاتيكان تشبه ملخص پركلوس مما يدل على أن هذه النسخ جميعها نقلت من ملخص سابق عليها دون أن تتاح لأصحابها فرصة الاطلاع على الدائرة الأصلية .

وسواء أصحت رواية فتيوس أم لم تصح فإننا مدينون لپركلوس بهذه المعلومات الواسعة التى أنبأنا بها فى هذا الملخص والتى سنسير على ضوئها فى الحديث عن هذه القصائد .

تنقسم هذه الدائرة إلى ثلاث مجموعات : المجموعة التروادية ، وهى كل مايتعلق بحرب تروادة ، والمجموعة الثيبية ، وهى مايتعلق بأساطير ثيبا ، ومجموعة أخرى تتألف من قصائد متفرقة فى موضوعات شتى لايجعلها جديرة باسم المجموعة إلا انضواؤها تحت علم التشتت إذا صح أن يكون للتشتت علم ، والآن إليك هذه المجموعات فى شىء من البيان :

(١) المجموعة التروادية

يحدثنا الأستاذ كروازيه ـ مستنداً إلى پركلوس وإلى مصادر أخرى ـ أن هذه المجموعة تتألف من ست قصائد : الأولى الأثيوپية ، والثانية تقويض إليوس ،

---

(١) خرستوماثيا هى مجموعة من الشعر الهيليني اشتملت على ملخص للدائرة الخماسية وغيرها من منتجات العصر الغنائى وقد نسبت هذه المجموعة إلى پركلوس ولم يعين فتيوس هذا المؤلف فاختلف فيه المؤرخون ، فذهب فريق منهم إلى أنه پركلوس الفيلسوف الأسكندرى الذى عاش فى القرن الخامس بعد المسيح . وذهب فريق آخر إلى أنه أحد النحويين الذين دعى عدد منهم باسم پركلوس . وأيا ما كان فان مؤلف خرستوماثيا قد قسم فيها قصائد الدائرة الخماسية ولخصها وعين مؤلف كل واحد منها وحدد مكان وزمان مولده .

والثالثة الإلياذة الصغيرة ، والرابعة الأنشودة الكبريسية[١] والخامسة العودة ، والسادسة التيليغونية .

فأما القصيدة الأولى وهى الإثيوبية فمؤلفها - فيما يرى برقلوس - هو « أركتينوس » Arktinos - الميلتى[٢] . وتتألف هذه القصيدة من خمس أنشودات ، وهى تشتمل على مناظر طويلة تعوزها الوحدة والتماسك ، وكان القدماء يذيلون بها الإلياذة ويعتبرونها ملحقاً لها . ومجملها أن « بَنْثيسيليه » ملكة الفوارس تَقْدُمُ مع صواحبها إلى معمعان القتال ليساهمن فى المعركة فى صف التروادين ، فلا يجد أخيلوس بدا من قتلها فيفعل رغم أنه كان مغرماً بها . وهنا ينبرى له « ثِرْسيئيس » Virgilios « الهجاء ويصب عليه قوارص لذعه ويسخر من حبه فلا يكون من أخيلوس إلا أن يقضى عليه لساعته . وعلى أثر هذا يحتدم بين رؤساء الأكيان جدل لا ينطفئ لهيبه إلا عند ما يقود أوديسوس أخيلوس إلى جزيرة « ليبوس » ليتطهر فيها من هذا الإثم الذى اقترفه بقتله هِيلِّينيًّا .

وبعد انتهاء هذا المنظر يعرض علينا منظراً آخر نشاهد فيه « مِمنون » بن « تيتون » ملك مصر و إثْيُوبْيا - وكانت أمه « أورُور » إلاهة الفَجْر - يرسله والده إلى الحرب لمعونة « بريامُوس » فيأخذ منها بنصيب يكون من نتائجه أن يقتل « أنتيلوخوس » بن نستور ثم يقتله أخيلوس ، غير أن هذا الأخير لا يلبث أن يهلك بسهم باريس الذى يصوبه أپولون

---

(١) الكبريسية نسبة الى كبريس وهى الجزيرة المشهورة الآن بـ « قبرص » وقد اعتاد الكتاب القدماء استبدال الكاف والتاء الاغريقيتين بالقاف والطاء العربيتين إشعارا بإخضاع الكلمات الأجنبية للنطق العربى فكتبوا قبرص بدلا من « كبريس » وقسطنطينية بدلا من « كستنتينية » وجاراهم المحدثون فى هذا التقعر الذى لامبرر له فكتبوا إيطاليا بدلا من إيتاليا ، بل قد أفرط أحد أعضاء المجمع اللغوى السابقين فى هذه المقالاة فاقترح أن تكتب كلمة : اللاطين بدلا من كلمة اللاتين . ولما كنا نمقت هذا التعمل الذى يأباه المنطق لوجود كلا الحرفين فى اللغة العربية ولا انتفاء الضرورة الداعية له ، فقد عولنا على ألا نستبدل الكاف والتاء الفرنجيتين بالقاف والطاء العربيتين إلا فيما تعذر علينا العدول عنه كسقراط وأفلاطون وأرسطو وماشا كل ذلك .

(٢) هو شاعر عاش فيما يظهر حوالى منتصف القرن الثامن قبل المسيح .

إلى عقبه الذى لا يمكن أن يموت إلا منه[١] . ثم ينتقل بنا المؤلف إلى معسكر الهيلين فيقدم إلينا الاحتفال بجنازتى : « أنتيلوخوس » و « أخيلوس » ثم يشهدنا نزاع أوديسوس وأياس على أسلحة أخيلوس ، ذلك النزاع الذى ينتهى بفوز أوديسوس بهذه الأسلحة . وأخيراً يختم المؤلف قصيدته بمنظر موت أياس .

ويرى النقاد أن هذه القصيدة لا بأس بها وأنها تتقن محاكاة الإلياذة ولا تنأى عنها كثيراً فى تصوير أخلاق أبطالها ويعزون هذا إلى أن أركتينوس مؤلفها كان تلميذاً لهوميروس .

ومن آثار هذه القصيدة أنها هى التى ألهمت « بنداروس » كثيراً من قصائده العاطفية و « إسخيلوس » بعض مآسيه القيمة .

وأما القصيدة الثانية وهى تقويض إليوس[٢] فمؤلفها هو « أركتينوس » مؤلف سالفتها وهى تحتوى على قصة الجواد الخشبى الذى يخترعه أوديسوس ويختفى فى داخله هو وعلية الأكيان ، ثم يضعونه إلى جانب أسوار تروادة ليدخله التروادیون إلى مدينتهم . وعلى أثر ذلك يخرجون منه فيتمكنون من احتلال المدينة ، ولكن الأكيان يرون أن التروادیين قد لا يأخذون هذا الجواد فتفشل حيلتهم فيرسلون « مسينون » — وهو أحد الرجال المشهورين بالتمويه والتضليل — ليخدع التروادیين ويروج لهم إدخال الجواد فينجح فى مهمته وبعد هذا المنظر يعرض علينا المؤلف منظراً آخر يرينا فيه « لاؤوكون » بن بريامو س وهو كاهن أبولون يزهق روحه وروحى ولديه ثعبان مرعب ، وبعد ذلك يشهدنا اقتحام الأكيان المدينة والمعركة التى تحتدم بين الفريقين ، والمذبحة التى يحدثها المنتصرون بين

---

(١) تحدثنا الأساطير أن ثيتيس والدة أخيلوس أرادت أن تصيره خالدا فحملته وهو لايزال طفلا وغمسته فى نهر « إستكس » الذى لايموت من انغمس فيه ، فتم لها ما أرادت ، ولكن الموضع الذى كانت تقبض عليه من عقب قدمه ظل جافاً فقدر أن يكون هو المكان الوحيد الذى تمكن إصابته منه . وقد كان أبولون بالطبع يعرف ذلك ، فصوب السهم إلى هذا الموضع بالذات فكانت القاضية . وقد أصبح المحدثون الآن يضربون المثل بذلك فيقولون لمن عرف مقتل خصمه : إنه قد كشف منه عقب أخيلوس .

(٢) إليوس هى تروادة .

المنهزمين . وأخيراً يصور لنا الحريق الذى يشعله الأكيان فى مدينة خصومهم . وبالإجمال تحتوى هذه القصيدة على الحوادث والمناظر التى رسمها « فِرْجِلُوس » فى الكتاب الثانى من الإينيَّة .

أما القصيدة الثالثة ـ وهى الإلياذة الصغيرة ـ فقد اختلفت الآراء فى مؤلفها ، فنسبها قوم إلى « كيناثون الإسبرتى » وعزاها آخرون إلى « لِسْخيس الليبوسى » . وزعم فريق ثالث أن مؤلفها هو « ديودور الإيرترى » ولكن النقاد المحدثين يرون أنها ألفت بعد الإلياذة الكبرى و بعد «الإثيوبية» وأن عدة مؤلفين قد اشتركوا فى وضعها . وأيا ما كان فإن پركلوس يلخص لنا منها أربع أناشيد ، ولكن يبدو أن القصيدة أكثر من ذلك ، إذ يروى لنا أرسطو فيها حادثتين لا توجدان فى تلخيص پركلوس ، وهما هدم « إليوس » وتوزيع الأسيرات ، وهذا يدل على أن النسخة التى وقعت فى يد پركلوس كانت ناقصة . وعلى أى حال فمجملها ـ حسب تلخيص هذا الأستاذ ـ هوأن المؤلف يبدأ قصيدته بتصوير مَقْدَم «فيلُكْتيتيس» فيحدثنا أنه يقدم إلى تروادة مسلحاً بأسلحة هيركليس فيقتل پاريس ثم يرسم لنا كذلك وصول « نِيُپْتوليموس » بن أخيلوس الذى يحتفظ له الوحى بالنصيب الفاصل فى الاستيلاء على تروادة ، فيحدثنا أنه يشتبك فى مبارزة مع « أورپيلوس » آخر حلفاء التروادين فيقتله ، وعلى أثر ذلك تصبح المدينة ـ بعد فناء كل حلفائها ـ لا تعتمد إلا على قوتها الخاصة فيستميت سكانها فى الدفاع عنها ، وهنا يجىء دور الحيل التى يستخدمها أوديسوس بإرشاد أثينيه للقضاء على هذه المقاومة والتى أولاها دخول هذا البطل مدينة تروادة فى صورة متسول ليتجسس على أهلها . وثانيتها نقل تمثال أثينيه من تلك المدينة لتزول عنها الحماية السماوية فيسهل تدميرها . وثالثتها صنع الجواد الخشبى الذى تحدثت عنه القصيدة السابقة . ورابعتها بعثة « سينون » المضلل ليقنع التروادين بالاستيلاء على الجواد . وخامستها تظاهر الأكيان بالانسحاب والرحيل . و بعد تصوير هذه الحيل يرسم لنا المؤلف نتائجها فيرينا إدخال الجواد إلى المدينة وعودة الأكيان إلى مكانهم الأول بإشارة كانوا قد اتفقوا عليها مع سينون . وأخيراً أخذهم التروادين على غرة و إعمال السيوف والخناجر فى أعناقهم .

ويعلق النقاد المحدثون على هذه القصيدة بأنهم يلمحون فيها أحاسيس مختلفة ، وعواطف متباينة ، قصد المؤلف رسمها والإلحاح عليها فى الأنشودة الأخيرة . فمن ذلك مثلاً أنه أراد إبراز مجد أوديسوس ونسبة الفضل إليه فى ذلك الانتصار الباهر الذى أحرزه الهيلين على أعدائهم ، وإثبات الجاذبية والحب بين مينيلاؤوس وهيلينيه ، ووصم نِيُبْتوليموس بالخلو من الرحمة والعواطف النبيلة إذ يعزو إليه قتل الطفل « أستيانَكْس » بن هكتور .

أما الرابعة ـ وهى القصيدة الكبريسية ـ فقد اختلفت النقاد كذلك فى مؤلفها ، فنسبها القدماء إلى هوميروس ، ونفى هيروذوتوس هذه النسبة ، ولكن لم يعين مؤلفها الحقيقى . ومال أرسطو إلى إلحاقها بالإلياذة الصغيرة . وفى القرن الأول بعد المسيح عزاها المتأدبون إلى شاعر كبريسى يدعى : « استاسينوس » ولكن عدداً كبيراً من الأدباء يردون هذا الرأى ويعتبرون القصيدة غفلاً من مؤلفها وإن كان عنوانها يشهد بتمتها بصلة إلى جزيرة « كِبْريس » (قبرص) .

ومهما يكن من شىء فإنها تصعد فوق سلم التاريخ إلى القرن السابع . وقد قسمها أدباء العصر الاسكندرى إلى إحدى عشرة أنشودة . ومجملها ـ حسب تلخيص پركلوس ـ أن المؤلف يصور لنا بدياً زوس يتحاور مع ثيتيس محاورة نفهم منها أن الرأى قد استقر على إشعال حرب تروادة للوصول إلى موت عدد من بنى الإنسان الذين زادوا على الحد المقدر . وبعد ذلك يرسم لنا المؤلف منظراً آخر يرينا فيه عرس ثيتيس الإلاهة البحرية الجميلة مع پليوس ملك إفْتِيا ثم يصور لنا تلك الخصومة الحادة التى تشعل إيريس «Eris» إلاهة النزاع والفرقة لهيبها أثناء حفلة العرس بين الإلاهات الثلاث : أثينيه وهيريه وأفروديتيه بسبب التفاضل فى جمالهن وما يتلو هذه الخصومة من احتكامهن إلى پاريس وحكمه لأفروديتيه بالتفوق وما ينجم عن ذلك من إهداء أفروديتيه « هيلينيه » إلى حَكَمِها المحبوب ، وسعى مينيلاؤوس وشقيقه أجاممنون لدى ملوك الأكيان لمساعدتهما على استعادتها من خاطفها ثم اجتماع الرؤساء فى أوليس . وبعد ذلك يحدثنا المؤلف عن الحملة الأولى التى يضللها سوء قيادتها فتتجه إلى « تترانى » بدلاً من تروادة فيردها «تيليفوس» ملك « ميزى » عن تلك البلاد .

ولكن أخيلوس قبل انسحاب الحملة يطعنه فيجرحه . وعلى أثر ذلك يتشتت الأسطول شذر مذر . وإذ ذاك تقتاد ثيتيس سفن ابنها أخيلوس إلى جزيرة « إسكيروس[١] » ثم يُبْرِئُ أخيلوس غريمه تيليفوس الذى طعنه على أن يتقاضى منه كثمن لهذا الإبراء إرشاد أسطولهم ، وبعد هذا يعود بنا المؤلف إلى أوليس فيشهدنا اجتماعا آخر بين رؤساء الهيلين ثم يصور لنا الموافقة على التضحية بإيفيجنيا ، ولكنه ينبئنا بأن أرتيميس تتظاهر بنحرها ثم تخفيها عن أعين الحاضرين وتنقلها إلى « توريس » وبعد هذا المنظر يعرض علينا مناظر أخرى متعاقبة كوصول الأكيان إلى جزيرة « تينيدوس » والحادثة التى وقعت لـ « فِيلُكْتيتيس » فيها وهجران الجيش إياه وحيداً جريحاً ، وكوصولهم إلى الشاطىء الترواذى الذى يحميه هكتور ، وكالمعارك الأولى التى يحتدم لهيبها بين الفريقين وموت « پروتيسيلاس[٢] » . وبعدهذه المناظر يصور لنا المؤلف كيف ينزل جميع الجيش الهيلينى إلى الشاطىء وكيف يرسل رؤساؤه إلى التروادين سفارة تطلب إليهم رد هيلينيه إلى زوجها فيرفضون . وعلى أثر هذا الرفض يبدأ حصار مدينتهم ثم يحدثنا فى الأناشيد الأخيرة عن مفاخر أخيلوس فى السنين الأولى للحصار كاستيلائه على عدة مدن حول عاصمة تروادة ويختم هذه المناظر بأسره : « بريسيئيس » و « كريسيئيس » اللتين رأينا فى الأنشودة الأولى من الإلياذة أنهما كانتا سبب مشاجرة أخيلوس وأجاممنون .

---

(١) تحدثنا الأساطير أن ثيتيس والدة أخيلوس تطلع على أسرار القدر فترى فيها أن ابنها المحبوب سيهلك فى حرب تروادة إذا ساهم فيها ، فتريد أن تعصمه من هذا المصير فتقتاد سفنه إلى جزيرة اسكيروس . ولما كان — وهو شاب — يشبه الفتيات فى جمالهن وقوامهن ، فإنها تلبسه ملابس فتاة وتضعه بين بنات ملك هذه الجزيرة فيظل هناك زمناً ، ولكن الوحى ينبئ الأكيان بأن الاستيلاء على تروادة بدونه مستحيل، فيكلف رؤساؤهم أوديسوس بإحضاره فيذهب إلى تلك الجزيرة ، وهناك يحس بأن تميزه من بين الفتيات عسير ، فيعمد إلى حيلة مجملها أنه يستحضر أساور وخواتم وسيفاً ويضع كل هذا فوق منضدة فتنقض الفتيات على الحلى تختار كل واحدة منهن ما يروقها إلا فتاة واحدة تسرع إلى تناول السيف فيتحقق أوديسوس أن هذه الفتاة الظاهرية هى أخيلوس فيعرض عليه مرافقته إلى تروادة فيقبل .

(٢) پروتيسيلاس هو أول هيلينى وضع قدمه فوق الشاطئ الترواذى ، وكان الوحى قد تنبأ بأنه — للحصول على الانتصار — يجب أن يقتل أول هيلينى ينزل إلى شاطئ العدو ، فلما علم پروتيسيلاس بتلك النبوءة قبل هذه التضحية وتقدم الجيش إلى النزول فوق الشاطئ ليكون موته مفتاح النصر .

أما الخامسة ـ وهى قصيدة العودة ـ فإن بركلوس ينسبها إلى مؤلف يدعى : « هجياس التريزينى » ولكن بعض الكتاب الآخرين يميلون إلى القول بنسبتها إلى مؤلف مجهول . وعلى أية حال فإن تاريخ تأليفها يرجع ـ فيما يظهر ـ إلى أواخر العصر الحماسى ، وهى أقل أهمية وأصغر قيمة من سالفاتها . وتتألف من خمس أناشيد ، ومجملها أنه لاتكاد حرب تروادة تضع أوزارها حتى يحدث من بعض المنتصرين مالا ترضى عنه أثينيه فتثور ثائرة غضبها ، وتصب عليهم جام انتقامها، فتحدث فى عقلى أجاممنون ومينيلاؤوس اضطراباً يحول بينهما وبين تنظيم برنامج العودة فيرتحل الرؤساء بدون نظام لا يعرف أحد منهم عن الآخرين شيئا ، فنستور وذيوميذيس يسلكان فوق صفحة البحر طريقاً مباشراً فيصلان إلى بلادهما فى سلام ويسر ، ومينيلاؤوس لايكاد يغادر تروادة حتى تفاجئه عاصفة هوجاء تحطم أكثر سفنه ثم تقذف به وبالخمس سفن الباقية له إلى مصر ، وكلخاس يقود عدداً من رجال الجيش الهيلينى ويرتحلون براً ويظلون يتابعون شواطئ آسيا الصغرى حتى يصلوا إلى كولوفون ، وهناك يموت رئيسهم ويدفن .

أما أجاممنون وأياس بن أوإليوس ، ومعهما فريق من الرؤساء فإنهم يصممون على الرحيل رغم ذلك الإنذار القاتم الذى يبلغهم إياه شبح أخيلوس ، ولا يكادون يفعلون حتى تحدق بهم العاصفةفتقذف بأياس إلى صخرة كبيرة فى البحر فيهيج ويتحدى الآلهة ويعاندهم. وهنا تثور ثائرة بوسيذون من هذه الوقاحة ، وفى الحال يفتت الصخرة التى يعتصم بها أياس من الأمواج فيغرق لساعته ، ولكن أجاممنون تحميه هيريه وتنقذه من العاصفة فيصل سالماً إلى وطنه ، بيد أنه لا يكاد يضع قدمه فى قصره حتى يهوى فى الأحبولة التى تنصبها له زوجته « كِلِيتِمْنِسْتريه » الآثمة وعشيقها « إغيثوس » ابن عم أجاممنون .

أما نِيُبْتُولِيموس فإنه يرتحل إلى بلاده سيراً على الأقدام فيلتقى فى طريقه بأوديسوس ويظل يكافح متاعب السفر حتى يصل إلى مملكة والده ومقر جده « پليوس » . وبعد هذه المناظر كلها يصور لنا المؤلف عودة مينيلاؤوس من مصر بعد أن أقام فيها أعواماً طويلة

وتشاء المصادفة أو القدر أن يكون يوم عودته هو نفس اليوم الذى ينتقم فيه « أورستيس » لوالده من والدته الخائنة وعشيقها المجرم .

أما القصيدة السادسة ـ وهى التيليفونوسية[1] فمؤلفهـــا فيما يرى بركلوس هو : « أوجامون[2] القورونائى » وقد ألفت فى عهد التدهور ، ولهذا كانت ضئيلة القيمة منحطة المستوى تدل على أن مؤلفها شاعر عادى ، وتسم العصر الذى كتبت فيه بميسم الظلمة والتأخر وإسفاف الذوق الأدبى . ومجملها أن المؤلف يصور لنا أوديسوس فى « پيلوپنيا » ثم يرتحـل به معنا إلى « التسپروتيّين » حيث نشاهد أوديسوس يتزوج بمليكتهـم « كالّيديكيه » ثم يعود به إلى إيثاكيه بعد بضع سنين من هذا الزواج . وفى نفس اللحظة التى يصل فيها إلى شاطىء تلك الجزيرة يلتقى بـ « تيليفونوس » وهو ـ فيما يخيل إلى هذا الشاعر السخيف ـ ولد قد أنجبه أوديسوس سابقا من « كِرْكيه » الساحرة التى رأينا فى الأوديسا أنها حوّلت بعض أصحابه إلى خنازير فيضرب هذا الشاب والده دون أن يعرفه فيقضى عليه ثم يتبين له أنه والده فيأسف على فعلته ويدفنه ثم يتزوج پينيلُپيا ويزوج والدته كِرْكيه بتيليماخوس . وفى النهاية تمنحهم هذه الأخيرة الخلود .

على هذا النحو تنتهى هذه القصيدة . ولا ريب أن أقـل موازنة بين صورة أوديسوس فيها وصورته فى الأوديسا توضح تمام التوضيح الفرق بين الشاعرين فتشهد للأول بالعبقرية والدقة والمهارة وحسن الذوق ، وتسلب الثانى كل هذه الصفات .

(ب) المجموعة الثيبية

قد تـكون هذه المجموعة الثيبية أقدم من المجموعة التروادية ، ولـكن هناك أسباباً فنية حملت النقاد على تقديمها عليها فى الدرس والتحليل والنقد . فمن تلك الأسباب أنها أعظم منها قيمة وأقدر على إبانة روح العصر الذى ألفت فيه ، وأن المصادفة قد حفظت لنـا منها

(١) هى نسبة إلى تيليفونوس بن أخيلوس .

(٢) هو شاعر من الدرجة الثالثة عاش فى النصف الأول من القرن السادس .

الشيء الكثير بفضل تلخيص بركلوس الذى أشرنا إليه آنفاً ، وهذه كلها مزايا لَمْ تَحْبُ الظروفُ المجموعةَ الثيبيةَ بشيء منها . ومهما يكن من الأمر فإننا سنحاول أن نلم هنا بطرف من هذه المجموعة لنقدم إليك منها صورة كافية بقدر المستطاع ، لإعطائك فكرة عنها .

تتألف هذه المجموعة كسابقتها من عدة قصائد ، أهمها الثلاث الآتية :

(١) الثيبية . (٢) الإيبيفونيات . (٣) الأوذيپوسية . و إليك نبذة عن كل واحدة منها:

فازت القصيدة الثيبية فى العصور القديمة بشهرة لم تتح لغيرها من قصائد هذه المجموعة. ونسبها القدماء إلى هوميروس ، واستلهم منها پنداروس بعض مقطوعاته الرشيقة، و إسخيلوس وسوفكليس وأوريپيديس كثيراً من مآسيهم الفاتنة . ومجملها أن « أدْرَسْتوس » ملك أرجوس يدفعه زوجا ابنتيه « تِدْيوس » و « پولينيكيس بن أوذيپوس » إلى إرسال حملة حربية إلى مدينة ثيبا لمقاتلة ملكها إيتِيُكْليس شقيق الثانى فيفعل ، وتتجه الحملة إلى ثيبا ، وهناك يشتعل لهيب القتال بين الشقيقين ، ولكن الشذرات الباقية من هذه القصيدة لاتسمح لنا بتتبعها حتى نرى نتائجها ، و إنما كل ما ترينا منها هو استمطار والدهما الشيخ اللعنة عليهما لاشتباكهما فى حرب وعدم احترامهما الأخوة ، ولولا مابقى لنا من المآسى التى استلهمت موضوعها من هذه القصيدة لظللنا نجهل هذه الأسطورة الشيقة ، وسنرى تلك المآسى حين نعرض للعصر الأثينى .

أما القصيدة الثانية وهى الإيبيفونيات فهى محاكاة ضعيفة للقصيدة الأولى ، ومؤلفها مجهول ، وموضوعها ينحصر فى وصف الحملة الثانية التى بعثت إلى ثيبا وتشتمل على ذكر مفاخر القائمين بها ، وهم من أبناء زعماء الحملة الأولى وأحفادهم ولكن أكثريتها الغالبة قد فقدت .

وأما القصيدة الثالثة وهى الأوذيپوسية فقد نسبها القدماء إلى كيناثون الأسپرتى ، وهى تشتمل على تاريخ أوذيپوس وما نسج حوله من أساطير مؤثرة وأقاصيص ساحرة ، ولكنها

فقدت جميعها ولم يبق لنا من نصها كثير ولا قليل ، وإنما كل ما نعرفه عنها هو ما ذكر من أوصافها فى كتب الأدب القديمة وما استلهمه المأساويون منها فى مسرحياتهم الخالدة .

القصائد المتفرقة

تعتبر الهيركليسية أشهر قصائد هذه المجموعة ، وقد عزاها الأدباء القدماء إلى « پيسندروس[1] الرودسى » وقد فقدت كلها ولم يبق لنا منها إلا حديث التاريخ عن قيمتها الأدبية وأهميتها فيما نسج حول هيركليس من أساطير ، ولكن هناك ظاهرة تاريخية هامة ألمّتْ بهذه القصيدة لاينبغى إهمالها . وهى أن أدباء الإسكندرية لم يدرجوها ضمن قصائد الدائرة الحماسية مع شهرتها ، وهذا حادث يدعو إلى التفكير ، ولم يستطع النقاد المحدثون أن يجدوا له حلاً إلى الآن .

ومن هذه القصائد المشتتة أيضاً قصيدة استيلاء هيركليس على « أوخاليَّا » وقد نسبها القدماء إلى هوميروس ، ولكن يبدو أن هذه النسبة خاطئة ، وأن الاسكندريين قد صححوا نسبتها إلى « كريوفيلوس » . وموضوعها تلك الحملة الشهيرة التى قام بها هيركليس ضد مدينة أوخالياً التى كان ملكها « أوريتوس » قد وعده بتزويجه من ابنته ثم أخلف وعده فأعلن هيركليس عليه الحرب واستولى على مدينته .

ومن هذه القصائد أيضاً قصيدتا التيتانوماخية والداناؤوسية اللتان تحتوى أولاهما على أسطورة زوس ، والتيتانوس التى سنراها عند هزيودوس ، وتشتمل ثانيتهما على أسطورة « داناؤوس » وهاتان القصيدتان قد فقدتا ولم يبق منهما شىء .

---

(١) هو شاعر موهوب عاش فى القرن السابع .

الشعر التعليمي

obeikandl.com

obeikandl.com

نظرة تمهيـــدية

رأينا فى الفصول الماضية أن الشعر الهوميروسى سواء منه ما كان لهوميروس حقاً أم ما نسب إليه يمتاز كله بأنه يصور المثل العليا فى الشجاعة والذكاء والحكمة والسياسة والأمانة والوفاء والحب الأبوى والأموى والبنوى والزوجى ، وأن الناقدين قد اعتبروه نوعاً من أنواع التسلية لما اشتمل عليه من سمو نادر التحقق فى النوع الإنسانى ، ورأينا أيضاً أن هذا النوع المتقدم قد نشأ وترعرع فى الجزر الإغريقية الأسيوية .

بيد أن إغريقا الأوروبية لم تلبث هى الأخرى أن أنتجت شعراً حماسيا ، ولكنه أقل سذاجة وتعلقاً بالمثل العليا ، وأكثر واقعية ، يُفَضِّلُ تصوير ماهو كائن على محاولة التشبث بما يجب أن يكون . وهو بهذا يمتاز أيضاً عن الأول بأنه تعليمى قد اشتمل على بعض المعارف الدينية والأخلاقية التى هى برهان رقى الأمم وانتقالها من دور السذاجة إلى دور القواعد المحددة ، والقوانين المنظمة ، فبعد أن كان شعر الدور الأول يقتصر مثلا على تصوير شجاعة أخيلوس وهكتور ، ودهاء أوديسوس ، وغطرسة أجاممنون ، وهدوء نِسْتور ، وجبن پاريس ، ووفاء پينيلُپيا وأندروماخيه فى شىء من البساطة أخذ شعر الدور الثانى يروى تعليمات أو طقوساً دينية لابد من معرفتها وتطبيقها .

ولكن هذا ليس معناه ـ كما يلاحظ الأستاذ كروازيه ـ أن شعر الجوالين كان خالياً من المعارف ، إذ أنه عرض للماضى فرسمه رسماً جيداً ، ولئن كانت صورته الظاهرة خيالية فإنه يشتمل فى أعماقه على قيمة تاريخية ، من الخطإ إهمالها أو الإغضاء عنها . وفوق ذلك فإن تلك اللوحات الفاتنة التى صور فيها الأهواء والعواطف والأحاسيس الإنسانية لايمكن أن يمر بها القارئ دون أن يتزود بألوان من الثقافة يتعذر جحودها ، وإنما معناه أن التعليم لم يكن مراداً لمؤلفى الشعر القديم ، وأن غايتهم كانت تنحصر فى تمجيد جلائل الأعمال ، وإبداء مافعله أجدادهم فى صور فخمة وروايات ساحرة ، وكانوا يرمون قبل كل شىء إلى

امتلاك قلوب سامعيهم ، فحملهم هذا على التنقيب عن المواقف النادرة والأفعال التى تأسر النفوس وتهز القلوب ، وهكذا نجحوا فى تصوير تلك اللوحات المثالية التى اقتطعوا موضوعاتها من أساطيرهم الشفوية ثم سلطوا عليها سلطان خيالهم فألبسها ثياباً غاية فى الحسن والفتنة . وكذلك الحال فيما يتعلق بهذا النوع الجديد من الشعر ، فهو ليس قاصراً على الشؤون التعليمية و إلا لكان جافاً ثقيلا ، بل لما كان شعراً أصلا ، و إنما غايته الأولى التى قصد إليها هو التعليم ، فسواء أكان مشتملا على مواعظ أخلاقية ، أم على قواعد زراعية ، أم على معلومات فى الملاحة والفلك والكهانة ، أم على تاريخ الآلهة وسير الأبطال ، فإن غرضه الأول من هذا كله هو أن ينقش فى رؤوس قرائه هذه المعارف ليحفظوها و يعضوا عليها بالنواجذ ، و بهذا يكون قد تحقق له غرضان جليلان : الأول تعليم الأمة وتثقيفها ، والثانى تسليتها التى كانت هى الغاية الوحيدة فى شعر الدور الأول ولكن الغرض الجوهرى الذى له السيادة هو التعليم .

لا ينسب هذا النوع الجديد من الشعر إلى مدرسة تعليمية تربط زعماءها صلة معينة أو غاية محددة اتفقوا فيما بينهم على تحقيقها ، و إنما ألفه شعراء متباينو المشارب والأذواق ، و إن كانوا جميعاً من إغريقا القارية . وهنا تبدو لنا ظاهرة لا ينبغى إغفالها ، وهى أن تباين البيئة الطبيعية من جهة ، وتقدم العصر من جهة أخرى هما اللذان أحدثا ذلك الفرق بين هذين الشعرين ، و إليهما كذلك يعزى اختلاف الغايتين ، فقد ساد فى الشعر الأول الخيال والحرية والهوى والسطوع ، وغلب فى الثانى العقل والتأمل والتقيد بالقوانين ، والتقرب من الواقع والدخول فى باب النكتة المعجبة والسخرية اللاذعة .

لم يصل إلى أيدى الناقدين من شعر هذا الدور شىء قبل هزيودوس ، لأنه قد ألمت به نفس الظروف التى ألمت بالشعر القديم ، فسبق هيزيودوس شعراء آخرون أقل منه قيمة وأصغر شأناً رسموا له الخطط ووضعوا البذور الأولى للشعر التعليمى ، ثم جاء هو بعد ذلك فأفاض عليه من عبقريته ما سار به فى طريق الكمال هذا الشوط البعيد الذى نشاهده على نحو

ما حدث فى الإلياذة والأوديسا تماماً ، وإلا فكيف يكون من الممكن أن يبدأ الشعر التعليمى بمثل منتجات هزيودوس بغتة دون تمهيد ولا إعداد ؟ ! .

كما كشفنا منبع الإلياذة والأوديسا فى الأناشيد الدينية ، كذلك يجب أن نبحث عن مصدر الشعر التعليمى بين سطور هذه الأناشيد نفسها .

ومن آيات ذلك أننا كثيراً ما نلتقى بأساطير دينية فى شعر هزيودوس كما نلتقى بتاريخ أسر الآلهة مفصلاً فى بقية الشعر التعليمى ، وكذلك كثيراً ما نلتقى فيها بحكم عقيدية ، ومواعظ أسطورية . فمثال ذلك أن هيروذوتوس يحدثنا أن شخصاً اسپرتيا يدعى « جلوكوس » يستشير الوحى فيما إذا كان يستطيع أن يستولى على وديعة أودعها عنده شخص آخر وأن يتخذ القسم المزيف وسيلة لهذا الاستيلاء ، فيجيبه الوحى قائلاً :

« . . . . . لكن القسم له ولد ليس له اسم ولا ذراعان ولا رجلان ، ومع ذلك هو يطير ويتعقب الجانى إلى أن يحدق به فيسحقه هو ونسله وبيته كله ، ولكن نسل من يحترم قسمه هو على العكس من ذلك سعيد من عام إلى عام » .

ونحن إذا نظرنا فى البيت الأخير من هذه الإجابة التى وردت على لسان الوحى ألفيناه نصاً فى شعر هزيودوس ، وهذا كله يحملنا على الاعتقاد بنشوء هذا اللون من الشعر عن تلك الأناشيد الدينية .

ومن خصائص هذا الشعر التعليمى أيضاً أنه تكثر فيه الخرافات الشعبية ، والأمثال العرفية ، والقصص الصغيرة التى تخفى بين طياتها مبادىء أخلاقية سامية ، والتى كان الهيلين يحبونها كثيراً ، لالتئامها مع طباعهم ، وانسجامها مع ميولهم .